هذه السلسلة

منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين، جرت أكبر حملة تشويه للوعي القومي عرفها شعب في تاريخ الإنسانية، حملةٌ كان هدفها أن تهزم شعبًا من داخله، بعد أن حار أعداؤه في كسره من خارجه، وفشلوا. جرت تلك الحملة هنا، على أرض مصر، حيث اتفقت مصلحة النظام وقتها، مع هوى أكبر فصائل المعارضة، فاجتهدوا جميعًا لتشويه تاريخ هذا الشعب الحديث والمعاصر.

أما النظام، فكان قد تبنى سياسة الانبطاح أمام الإرادة الأمريكية، ومن ثَمَّ الواقع الجديد لإسرائيل بوصفها دولة المحور في الشرق الأوسط. وصار من مصلحته بطبيعة الأمور أن ينسى الناس أيام مجد لم يتقادم بها العهد بعد. صار من مصلحته أن يتحول انتصار الشعب في 1956 م إلى هزيمة، وأن يتحول انتصاره المجيد في 1973 م إلى محاولة بطولية انتهت بمجرد تدخل أمريكا!! وأن تتحول هزيمة 1967 م من هزيمة جولة إلى عقدة أبدية، وأن تتحول حرب 1948 م ببطولاتها إلى «علقة» للجيوش العربية!!

كما صار من مصلحته أن ينسى هذا الشعب كيف قام بالثورة تلو الثورة في تاريخه الحديث، من ثورة 1805 م، للثورة العربية بقيادة «أحمد عرابي باشا» في 1881 م، لثورة 1919م

obeikandl.com

بقيادة «سعد زغلول باشا» ورفاقه، وثورة يوليو 1956م. أربعة ثورات جرى تهميشها أو تشويهها، فصارت «هوجة عرابي»، و«انقلاب يوليو»، وصار الحديث عن خنوع المصريين وصناعتهم للفراعين حديثًا مقدسًا على موائد المثقفين قبل البسطاء. وتحول السؤال المنطقي وهو «متى يثور المصريون؟» إلى سؤال مرير هو «لماذا لا يثور المصريون؟»، كأن عدم ثورتهم على الظلم صار واقعًا نسعى لفهمه، وليس مرحلة نسعى لتغييرها!!

هكذا اقتضت مصلحة النظام، أما أكبر فصائل المعارضة - أو التي يفترض أنها كانت معارضة - ممثلة في تيار اليمين الديني، من جماعة الإخوان ومن لفَّ لفَّها، فقد وافق هذا النهج من النظام هواهم. ولم يكن إسهام أقلامهم ومنابرهم في تشويه تاريخنا بأقل من إسهام النظام. فمن مصلحتهم أن يرى الناس تاريخهم كله من محنة إلى محنة، وأيامهم كلها من هزيمة إلى هزيمة، ومن انكسار إلى انكسار. ليصبح تيار «دولة الخلافة» عندهم هو المهدي المنتظر، الذي يستدعي لهم من التاريخ البعيد مجدًا، نفاه بنفسه عن التاريخ الحديث والمعاصر!.

حتى جاءت ثورة 25 يناير، وبعدها ثورة 30 يونيو، وسقط نظام مبارك وبعده الإخوان، ليبدأ الشعب رحلة البحث عن ذاته، وتاريخ رجاله وأبطاله من جديد. فالتجربة قد فندت له ما درسه في المناهج الدراسية، وما قرأه من رفوف المكتبات على السواء.

وسلسلة «أغلى الرجال»، سنطالع فيها معًا قصصًا لرجال عاشوا بيننا في الماضي، فصنعوا حياتنا في الحاضر، أو

بمعنى أدق، صنعوا أفضل وأنبل وأنظف ما فيها. ولو كانت تلك القصص في شقها الدرامي من خيال مؤلفها، فهي في شقها السياسي والعسكري والمعلوماتي تلتزم التاريخ، ولا تستلهمه فحسب. نكتب تاريخهم وبطولاتهم الواقعية التي فاقت الخيال، من أجلنا نكتبه وليس من أجلهم، ومن أجل مستقبلنا نقرأ فيهم ماضينا، فتلك القصص لن تعرفنا بهؤلاء الرجال وحسب، لكنها ستعيد تعريفنا من خلالهم بتاريخنا الحقيقي الذي تعمد الجميع وتعاون الجميع لتشويهه. والله من وراء القصد وبالله التوفيق.

القاهرة في خريف 2013م

المؤلف

obeikandl.com

هذا العدد

وهل يمكن أن يمر هذا العدد من سلسلة «أغلى الرجال» دون تقديم خاص، وهذا العدد عنه؟ عن الرجل الذي مهَّد لأغلى رجالنا طريقهم؟ وهل يمكن أن تكون هذه القصة كغيرها من القصص، وهي قصة تلك المرحلة المبكرة من مراحل عمره، والمؤسسة لما بعدها من مراحل نضاله؟ ذاك النضال الذي قاد نضال أمة بأسرها؟

إنها قصة الصاغ «جمال عبد الناصر حسين خليل»، رئيس أركان حرب الكتيبة السادسة، من اللواء الرابع، ضمن قوات الجيش المصري المشاركة في حرب فلسطين، والبطل المقاتل في معارك أسدود والمجدل والمحجز وعراق المنشية وغيرها، وبطل الصمود في حصار الفالوجا! وفيما بعد الزعيم خالد الذكر «جمال عبد الناصر» رئيس الجمهورية العربية المتحدة! إنها تلك المرحلة من حياته التي ندر تناولها على كثرة ما كتب عن الزعيم.

وهنا يجب أن نرجع الفضل لصاحبيه، شاكرين مقدرين لدورهما الذي لولاه ما كان ممكنًا توافر المادة التاريخية اللازمة لكتابة هذه القصة عن تلك المرحلة المحورية في حياة الزعيم الراحل، إنهما الأستاذان «محمد حسنين هيكل»، و«عبد الله السناوي». أما أستاذنا «هيكل» فكان له فضل الاحتفاظ بدفتر يوميات الحرب الذي خطه الزعيم بيده يومًا بيوم، والذي حصل عليه خلال حوار صحفي أجراه مع الزعيم

obeikandl.com

بعد الثورة عام 1952م عن ذكرياته حول حرب فلسطين، فأعطاه الزعيم دفتر اليوميات ليعينه على تدقيق التواريخ والأحداث، واحتفظ به «هيكل» لستين عامًا كاملة، حتى رأى النور في عام 2013م، عندما أقنعه تلميذه النجيب، الكاتب الصحفي الأستاذ «عبد الله السناوي» أن الوقت قد حان لتنشر تلك اليوميات للناس. فنشرها «السناوي» بتقديمه بعد موافقة الأستاذ، نظرًا لتوقف «هيكل» بقرار طوعي عن الكتابة منذ سنوات!

ولهذا، فقد كان دوري المتواضع في كتابة هذه القصة، هو أن أعيش كل تفاصيل اليوميات التي خطها الزعيم بيده في ذلك الدفتر القديم، وأن أرى الأحداث بعين خيالي حية تجري أمامي، وأن أتمم ما غاب منها بما لديَّ من معلومات عن أحداث حرب فلسطين، لأكتب قصة! .. قصة ولادة الزعيم على أرض فلسطين! تلك الولادة التي عبر عنها الأستاذ «السناوي» خير تعبير في مقدمة كتابه وهو يقول: ولدت الثورة في قلب رجل عندما كتب بخط يده في يوميات القتال: «لقد فقدنا ثقتنا في قيادة الجيش .. وفي قيادة البلاد». ولعل هذه العبارة ـ بالذات ـ هي المشهد الافتتاحي لإزاحة النظام الملكي بالكامل .. تمهيدًا لعصر ثورة يوليو التي خاض معاركها، انتصر وخسر، وربما أكثر ما أوجعه بعد هزيمة 1967م أن بعض ما انتقده في عام 1948م تكرر معه عام 1967م. ثغرات النظام أدت إلى الانقضاض عليه والنيل منه .. وكانت تلك محنة رجل متسق مع نفسه ومع أفكاره، يصدق نفسه ويصدقه الشعب، لا يكذب ولا يدعي .. حتى وهو يكتب في مطلع شبابه يوميات قتال لا يتوقع أن يراها أحد .. أو أن المقادير سوف تصحبه إلى سدة السلطة العليا

في مصر، وأن يكون بعد أربع سنوات الرجل القوي في مصر وبعد ثماني سنوات الرجل الذي يسقط الإمبراطوريتين الإنجليزية والفرنسية، ويصعد بالأحلام العربية ـ في تجربة الوحدة مع سوريا ـ إلى ذراها العالية بعد عشر سنوات فقط من كتابة مذكراته في خندق قتال على ضوء لمبة جاز .. كأنه شهاب انطلق من فلسطين إلى القاهرة .. كأنه نسر محلق في سماء المنطقة حملنا على جناحيه، قبل أن يهبط إلى مثواه .. ونهبط بعده إلى المأساة.

كلمات عبقرية جديرة بأن تعبر عن عبقرية البطل أو بطولة العبقري؛ عبقري الوطنية المصرية والقومية العربية المعاصرة! جمال عبد الناصر.

obeikandl.com